

دور الإسلام والتصراحيّة في أفريقيا

في نظر الكتاب الغربيين

■ انتشر الإسلام في أفريقية ولا يزال ينتشر . ولقد أدهشت سرعة انتشار الإسلام في أفريقية موظفي الدول التي كانت تستعمر أجزاء من هذه القارة ، كما أدهشت المبشرين ، والكتاب والباحثين ■

(Mossi) ان يسبحوا مسلم بالصلاة في واجادوجو ، والا الزموه عندئذ أن يحمل معه الأرض التي سيسجد عليها . وفي السنغال الوثنيين من عشرين سنة مضت ، يرفضون اعطاء المسلم كوب ماء يروي به عطشه .

الإسلام ينتشر
برجال بسطاء

وزاد من دهشة هؤلاء المبشرين أن الاسلام ينتشر رغم أن الدعوة اليه لم تكن تقف وراءها دول قوية . لها نفوذها السياسي ومكانتها المادية ، وإنما كان ينتشر على أيدي رجال عاديين بسطاء .
وقارنوا في هذا الخصوص بين الدعوة

١٩٥٩م من أجل خطة التنمية ، على اثنتين وعشرين قرية من قرى السورير اخيرت اختياراً عشوائياً ، ان ٦٧٪ من سكانها مسلمون . في مقابل ٢٧٪ من الوثنيين . و٥٪ من الكاثوليك .

في شمال داهومي قدم في سنة ١٩٤٩م إلى إحدى قرى الباريبا الوثنيين رجل دين غير . وفي سنة ١٩٥٢م خلفه احد المرابطين . وبعد عشر سنين لم يكن هناك أكثر من عشرة اشخاص جرى تعميدهم (اعتنقوا النصرانية) بينما اعتنق نصف سكان القرية الاسلام .

وفي ابريل سنة ١٩٦١م في مؤتمر عقد في مدينة أبيدجان صاح الشيخ تسوري « منذ عشر سنين فقط ، ما كان من الممكن للموسي

نجاح الإسلام في أفريقيا

من الممكن قياس نجاح الاسلام الحديث في افريقية السوداء من بعض الوقائع التي تلقي جميعها عند نقطة واحدة . فطبقاً لترمينجهام (Trimingham) كان هوسا نيجيريا الشمالية في سنة ١٩٠٠م قد اعتنقوا الاسلام بنسبة ٥٠٪ وأصبحت هذه النسبة ٨٠٪ في عام ١٩٥٢م .

وفي السنغال يتجه السورير (Sereres) الذين ظلوا فترة طويلة ملتصقين بالوثنية ، او اعتنق القليل منهم النصرانية ، في الوقت الحاضر إلى اعتناق الاسلام بصورة جماعية . وقد اظهر بحث اجري في سنة

■ كثير من الرجال الذين يعدون أنفسهم نصارى طبيين لن يخطر ببالهم الإقرار بالزمانة مع النصارى من سود البشرية . ■

■ لم أدخل مرة مسجداً دون أن يعتريني شعور دافق ، بل لعلي أقول : دون أن يعتريني شعور ما بالأسف لأنني لست مسلماً .. ■ [رينان]

وكثير من الرجال الذين يعدون أنفسهم نصارى طبيين ، لن يخطر ببالهم الإقرار بالزمانة مع النصارى من سود البشرية . أما المسلمون فلا يفرقون . فالعرب والزنوج والبربر والهنود أخوة في الدين . ولايختلط بعضهم ببعضهم الآخر في العبادة فحسب . وانما يعاون بعضهم بعضاً عن طيب خاطر في شؤون الحياة اليومية .

والحياة القبلية تنفسخ تحت تأثير الحضارة الأوربية . لكن عندما يعتنق القبولون الإسلام يجدون طريقهم إلى نظام عظيم للدين والأخلاق ، ويجدون جزاءات خلقية عوضاً عن تلك التي عفى عليها الزمن . وفي غرب افريقية وُحد المسلمون القبائل المتناثرة في ممالك قوية شغل فيها الزنوج مناصب رفيعة .

ويقول ميك (Meek) في كتابه « القبائل الشمالية في نيجيريا »^(١) .
« وهكذا فقيما يتصل بالجانب الروحي ليس الإسلام في نيجيريا سوى محاكاة متواضعة للديانة السامية التي جاء بها النبي ﷺ . وإذا نظرنا إلى الإسلام كعمل سياسي واجتماعي واقتصادي فإن الامر يختلف كثيراً . فقد أتى الإسلام بالمدنية إلى قبائل بربرية ، واحال جماعات وثنية منعزلة إلى امم . وجعل التجارة مع العالم

لم تعد ترضيهم . ففي زنجبار اتاحت للاهلین فرصة المقارنة بين النصرانية والإسلام على مدى ستين عاماً ومع ذلك ظلوا في معظمهم مسلمين .

وتكمن قوة الإسلام في قوة العقيدة التي يمنحها . فالسلم يعتقد في اله واحد . ويوما بعد يوم يتردد صدى الاعلان المؤثر عن الايمان ، في الدعوة إلى الصلاة : « الله اكبر . أشهد ان لا إله إلا الله . » قد يشير رجال الدين النصراني إلى بعض جوانب سلبية في العقيدة الإسلامية . لكن الأفريقيين ليسوا رجال لاهوت . فتفكيرهم يتجه إلى التوحيد . وتأكيد المسلمين الواثق بانهم يعدون الهأ واحداً يجد قبولا كبيرا لديهم .

وفضلا عن ذلك فإن الدعوة إلى الإسلام في افريقية لايتولى أمرها رجال بيض غرباء يمارسون تقاليد اجتماعية مغايرة ، وانما رجال من اللون الأفريقي نفسه (أو من لون قريب منه) كما ان الداعية المسلم وان كان ذا مستوى حضاري اسمي بشكل ظاهر ، فهو ليس على مسافة بعيدة إلى درجة مستحيلة كما هو الحال بالنسبة للأوروبي . فليس ثمة هوة بين الداعية المسلم ، سواء كان تاجراً أو واعظاً . وبين الأفريقي كتلك الهوة التي بين الداعية النصراني والأفريقي .

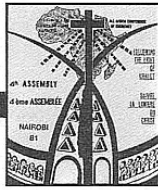
الإسلامية وما تحققة من نجاح مذهل والدعوة النصرانية وماتلقاه من فشل ذريع . وقد راعهم بطء انتشار النصرانية رغم ما كان يلقاه دعائتها من دعم مادي وتأييد سياسي .

وتناول بعض الباحثين الغربيين هذه الظاهرة بالدراسة وعرضوا ما توصلوا إليه من نتائج في كتب ومقالات . وفي وسع من نتاح له فرصة الاطلاع على هذه المؤلفات ان يتبين تفاوتاً في تقييم هؤلاء الكتاب للدعوة الإسلامية في افريقية . فمن هؤلاء من تتسم كتاباته بروح التعصب للنصرانية ، والتحيز للثقافة الغربية . والتحامل على الإسلام ، والكرامية لاتباعه . ومنهم من تتسم كتابته على العكس بشيء من الحيدة وقدر من الانصاف .

وقد رايت أن أعرض على القراء مقتطفات من كتابات هؤلاء الباحثين على اختلاف مشاربهم . والهدف أن يتعرف القارئ العربي المسلم على وجهة نظر قوم يختلفون عنه في الحضارة والدين فيما تنطوي عليه الدعوة الإسلامية في افريقية من جوانب قوة أو نواحي ضعف .

رأي بعض الباحثين الغربيين المنصفين يقول سميث (Smith) في كتابه « المقعد الذهبي »^(٢) .

« ينبغي الاعتراف بأن الإسلام ينطوي على قوة جذب . وكون ان نسبة بهذا الحجم من الأفريقيين قد اعتنقت هذه الديانة لدليل على ذلك . فليس من المقتنع تفسير اعتناقه على أساس ان الأفريقيين قد أرغموا على اعتناق الإسلام لان ذلك ليس صحيحاً بالنسبة للغالبية . وليس من المقتنع القول بأن الإسلام يكتسب انصاراً بملق شهواتهم الحسية . كما ليس من الممكن القول بأن الأفريقيين قد اختاروا الإسلام لأنه لم يكن لديهم بديل آخر عن ديانتهم الوثنية التي



في نظر الكتاب الغربيين

الخارجي أمراً ممتكناً . وكان من ثم أداة رئيسية في تنمية الغريزة التجارية التي جعلت من الهوسا والنومي واليوربا والبري - بري تجاراً مشهورين ، ووسع من الأفق ، واضفى على اتباعه الكرامة واحترام النفس واحترام الآخرين . وسُمى الجماعات الإسلامية ثقافياً وسياسياً يرجع أساساً إلى الدين . فقد ادخل الإسلام إليها القراءة والكتابة ، وبتحريمه الخمر واكل لحوم البشر والخار والعادات البربرية الأخرى مكن الرنجي من ان يصبح مواطناً علمياً .

ويشرح ميك وسائل انتشار الإسلام في نيجيريا فيقول :

« ترتب على وجود وسائل المواصلات ان شرع الوثنيون والمسلمون يتصلون ببعضهم بعضاً اتصالاً مستمراً . فالوثني الذي يترك موطنه يجد ان من المناسب اعتناق مفهوم المسلمين وأسلوبهم في الحياة . ويتبين سريعاً ضيق مبادئه بالمقارنة بعالمية الإسلام . فضلا عن ان الانتقال من الوثنية إلى الإسلام ينطوي على صعوبة . فبانساع افقه يدرك الافريقي وجود إله اعظم واحد . واعتقاده في الأرواح الشريرة لا يتأثر بما يحدث من تغيير خارجي في العقيدة . كما يتبين ان المسلمين متسامحون وأن مسلكهم أفضل من مسكنه ، وثابهم أفضل من ثيابه . وأن نظرتهم إلى العالم أفضل من نظرتهم . وكثيراً ما يقيم المسلمون مع الوثنيين . وهؤلاء المستوطنون ليسوا شاذن أفتاق بصفة خاصة . يستهدفون الحياة السهلة عن طريق استغلال الوثنيين الجبهة السذج . وإنما أهدافهم في الغالب شريفة . وهم يصبحون أصدقاء للوثنيين وسرمان

ما يكتسبون نفوساً عليهم لايسئون استفلاله . واكبر عقبة في سبيل انتشار الإسلام هو تحريم الخمر . فالخمر بالنسبة للوثني ليست مجرد كأس بيبج (ويسكر) وإنما هي أيضاً طعام يغذي . ويعرض مويل وجهة نظره بالنسبة لآثر

اعتناق الإسلام الافريقي فيقول :

« يأخذ الإسلام بيد الافريقي ويمنحه المساواة مع كل الرجال الآخرين . فمفند اليوم الذي يعتنق فيه الوثني الإسلام ، لا يستطيع مسلم من الساميين ان يزعم لنفسه سمواً اجتماعياً عليه . فالإسلام بالنسبة للرنجى هو الاتجاه نحو مفهوم اسمي للوجود ، حيث يوحى له بالثقة في مصيره . ويشرب روحه بإيمان قوي في نفسه وجنسه » .

ويقول بلايدن في كتابه « الإسلام في السودان الغربي »^(١٦) :

« ويتحتم علي الاعتراف بانتي حيثما شاهدت هؤلاء الرجال (الدعاة المسلمين) وهم يعملون ، وكثيراً ما شاهدتهم ، وقارنت بين جهودهم الحماسية ، وإنكارهم لذات ، وعدم ميلاتهم باعتراف الناس بجهودهم أو بالثناء عليهم ، وبين الدعاة المسيحيين وماكانوا عليه من تهيب وتردد واعتماد كلي على العيون والتأييد الخارجي ، كان يعتريني شعور مماثل لذلك الشعور الذي قال رينان (Renan) إنه كان يعتلج في صدره في كل مرة يشاهد فيها الصلاة اليومية للمسلمين . لم ادخل مرة مسجداً دون ان يعتريني شعور دافق . بل لعل اقول ، دون ان يعتريني شعور ما بالأسف لانتي لست مسلماً » .

ويقول سترمان في كتابه « الافريقي اليوم وغدا »^(١٧) :

« وحقيقة إن الإسلام يمثل في افريقية نموذجاً للحضارة يجعل من السهل ان نفهم لم يتمتع بالاحترام والتعاطف من جانب كثير من الاوروبيين ، وفي بعض الاحيان يوصى به بوصفه الدين الأكثر ملاءمة للافريقي . ومع ذلك فإن أولئك الذين يعتقدون هذا الرأي ينبغي لهم الاجتهاد حقيقة ان الإسلام له بعض الجوانب السلبية . ومن المشكوك فيه انه بحضارته الاسمى قد ادخل اضلأفاً اسمي » .

آراء بعض المنعصين للنصرانية

ويعرض كارنتر تقيمه لما ينطوي عليه دور الإسلام في افريقي في اجابيات وسلبيات في بحث له بعنوان « دور المسيحية والإسلام في افريقية المعاصرة » . والمنشور في كتاب « افريقية اليوم »^(١٨)

يقول كلرنتر في بحثه المشار إليه :

« ماذا يعني اعتناق شعب افريقي الإسلام بالنسبة لقرنته على الافادة من إمكانيات الحضارة الغربية والاستمرار في طريق التطور الذي فتح امامه الباب للاتصال بالعالم الخارجي ؟ يبدو ان اثر الإسلام في هذا الخصوص سلبي تماماً . فالإسلام يضع في طريق التقدم عقبة كزودا . ولعل هذه هي أخطر نتيجة ترتبت على انتشار الإسلام في القرن الماضي . ولذلك أسباب متعددة :

١ - فالإسلام يتسم بجمود بالغ : ذلك ان العبقرية الخلاقة التي كانت له في القرون الأولى ، تركت مكانها منذ امد طويل لقدرية تسلم بأن كل شيء إنما هو جزء من إرادة الله . وهو يجعل من هذا التسليم فضيلة ، كما ينظر إلى الرغبة في

التغيير بمثابة عصيان لله وهو يمثل ما تنطوي عليه الحضارة الإفريقية من شعائر ومعتقدات وتقاليد يسبغ عليه طابعه الرسمي ، ومن ثم يكفل لها الدوام . ولهذا فإن الجماعة التي اعتنقت الإسلام تكون أكثر تعصياً على التغيير من الجماعة التي لم تعتنقه .

٢ - التعليم الإسلامي محدود في غايته ومحتواه : فالمدارس المزعومة في الجهات الإسلامية من إفريقية من النادر أن تفعل شيئاً أكثر من تعليم التلاميذ تلاوة القرآن عن ظهر قلب باللغة العربية . وفي الغالب لا قيمة لها إطلاقاً بوصفها أداة لتأهيلهم لمواجهة الحياة الحديثة بصورة أكثر فعالية .

٣ - الإسلام علم رجال . مكانة المرأة فيه شديدة الانحطاط : ويعني ذلك أن البيت والحياة الأسرية مجردة من كل تأثير تحرري ، وتتجه فنسب نحو استمرار ركود الماضي وإوضاعه الخرافية .

٤ - يتجه العالم الإسلامي إلى النظر للغرب بعين الكراهية والارتباب ، دون أن يخلو ذلك من الحسد . ولهذا فإن الإسلام في

إفريقية يقدم نقطة التقاء لأولئك الذين يعارضون ، أيا كانت الأسباب ، نفوذ الغرب أو نشاطه أو سلطته .

٥ - الإسلام يقوي خطوط التفرقة ويدهمها ، لا سيما بين الجماعات الدينية . بدلا من أن يعمل على تحقيق اندماج أمم وأشمل ، فهو يسلم بوجود الأقليات ، بوصفها جماعات لها أحكامها الدينية وقوانينها الجنائية ، وخاضعة من الناحية السياسية للدولة الإسلامية . ولا يعترف بأية حرية للفرد في الاختيار بين هذه الجماعات ، أو الانفصال عن الجماعة التي ولد بها ، فيما عدا الحق في أن يعتقد الإسلام . فالحرية الشخصية الدينية أو السياسية لا وجود لها في النظام الإسلامي .

واعتناق شعب إفريقي للإسلام يشكل في الوقت الحاضر على الأقل اختياراً لا رجعة فيه لصالح الأساليب القديمة وضد الأساليب الحديثة .

غير أن الوضع هنا ليس قاتماً تماماً ، فالإسلام ككل يواجه بالتقدم التكنولوجي والاجتماعي الغربي ، وهو مضطر إلى أن يحقق استجابة ديناميكية إذا أراد البقاء .

ولا يمكن القول بأن عملية البحث هذه واضحة في الوقت الحاضر في الإسلام الإفريقي ، إذا استثنينا ربما بضعة مفكرين تقدميين في بعض الجهات . غير أن وجودها ذاته أمر مشجع . لأن الضرورات التي تعكسها لن تغيب طويلاً عن ادراك أولئك الإفريقيين الذين يزداد اتصالهم يوماً بعد يوم بالثقافة الغربية والتقنية الغربية والذين سوف يتساءلون بالضرورة عما إذا كانت العقيدة الإسلامية سوف تحصل دونهم والمزايا التي يتمتع بها جيرانهم .

وثمة مجال آخر يشكّل تجديد الإسلام فيه من الداخل أمراً أساسياً وهو قدرته على تنمية شعور الانتساء إلى وطن بالمعنى الحديث ، وقدرته على تنشئة رجال دولة قادرين على قيادة مثل هذه الأوطان . فالطابع المميز للدولة الإسلامية كان الاستبداد الفردي الذي يستند إلى ولاء جماهيري يعتمد على الدين أو الرهبة أو القوة العسكرية . ومثل هذه الدول قلما تبلغ حجماً كبيراً أو تعمر طويلاً أو تحقق استقراراً داخلياً دائماً . كما أنها ليست فعالة في تحقيق رفاهية الشعب . وهذا الطابع لا يتناسب مع الإطلاق مع البنية الإدارية المعقدة والتخصص التقني المتنوع الذي تقتضيه الوظائف المتعددة للدول الحديثة .

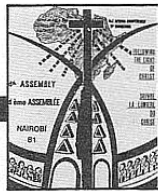
ولا يستطيع خلق ولاء وطني يرتفع فوق الاختلافات الدينية والثقافية ، ولا يستطيع أن يوفر مجالاً لقادة . إنه يكفل الأمان للعاملين الكفلاء بالدولة . وإلى أن تتحقق للإسلام القدرة على تنمية فلسفة سياسية أكثر ملائمة ، فإن الدول الإسلامية سوف تظل عاجزة عن بلوغ النضج والاستقرار .

اعتراف ببعض
إيجابيات الإسلام

ومع ذلك فإن للإسلام قيماً حضارية إيجابية ينبغي عدم اغفالها :

■ في الواقع الحالي ٨٥٪ من العمل التعليمي الذي يجري في أفريقيا بين أيدي قوى النصرانية .. ■

■ في السنغال يتجه (السرير) - الذين ظلوا فترة طويلة ملتصقين بالوثنية أو اعتنق القليل منهم النصرانية - إلى اعتناق الإسلام بصورة جماعية في الوقت الحاضر . ■



وفي نظر الكتاب الغربيين

بينما ينظر إلى التصيرية بوصفها ديانة « أجنبية ». ومع ذلك فإن التصيرية في أحسن أحوالها قد اثارت رغبة البحث في الثقافة الأفريقية ، وشجعت على إنتاج الأدب بلهجات أفريقية ، وسعت إلى تأكيد أفضل ما في الحياة الأفريقية . وبصيرورة التصيرية ديانة أهلية فعلاً سوف تقع على عاتقها مهمة أجل مما يقع على عاتق الإسلام .

والاسلام قد دخل حياة المجتمع الأفريقي دون أن يحدث خلافاً بهذه الحياة . ومن ثم فهو لم يحدث خلافاً بوحدة من أكبر مظاهر قوة الأفريقي الا وهي الجماعة . أما التصيرية فبسبب تركيزها على الطابع الفردي للديانة كثيراً ما كانت عاملاً في تفسخ حياة الجماعة .

والإسلام يجذب الأفريقي لأنه يخلو من أي تمييز عنصري . فإيا كان لون بشرية الرجل ، وإيا كان مركزه الاجتماعي ، وإيا كان وضعه الاقتصادي ، يكون دائماً موضع ترحيب للصلاة في المسجد والاختلاط بإخوانه المسلمين . ولا يمكن للتصيرية أن تدعي شيئاً مماثلاً في ممارسة عقيدتها .

هوامش

- (1) Smith (Edwin W.), The golden stool, London 1922, P. 226-230.
- (2) Meek (C.K.): The Northern Tribes of Nigeria, Landa 1925, Vol. II, P. 10.
- (3) Blyden, Islam in West Sudan, in Journal of the African Society No. V. 1902, P.
- (4) Westermann (D.), The African to-day and to-morrow, London 1949, P. 278.
- (5) Carpenter (G.W.), The rol of Christianity and Islam in contemporary Africa, in Africa to-day, 3rd ed, 1959.
- (6) Wysner (G.M.), Commentary in Africa today, P. 113-117.

الاسراف في تعدد الزوجات فإنه يقربه . وتعدد الزوجات هو أمر لا زالت الكنيسة المسيحية في أفريقيا تخاصم بالنسبة له . فهي تصر على وحدة الزوجة . لكن وحدة الزوجة تثير الكثير من المشاكل الخطيرة الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الأفريقي .

٢ - حيثما ذهب الإسلام تنتشر المدارس القرآنية . وفي كثير من الجهات انجذب الأفريقيون إلى الإسلام بسبب رغبتهم الشديدة في تعلم القراءة والكتابة . فقد تأثر الأفريقيون بسمو المسلم الذي يعرف القراءة والكتابة وعلى درجة من العلم . وقد اهتمت المسيحية منذ أيامها الأولى في أفريقيا ببرنامج تعليمي أكثر شمولاً من البرنامج الإسلامي . وفي الواقع ان حوالي ٨٥٪ من العمل التعليمي الذي يجري في افريقية بين أيدي قوى التصيرية .

وعلياً أن نسلم بأن كثيراً من هذه المدارس متواضع يقتصر على تعليم مبادئ القراءة والكتابة . لكن الغالبية العظمى من المدارس الإسلامية متواضعة للغاية ، فهي تقدم بعض المعرفة عن اللغة العربية ، وتعلم التلاميذ حفظ القرآن عن ظهر قلب . أما التعليم التصيري فعلى العكس أوجد بعض مدارس ممتازة . وتجاوزت بمسافة بعيدة المدارس الإسلامية فيما يخص المساهمة في تطوير الشعوب الأفريقية . ويرجع ما ينطوي عليه الإسلام من جاذبية بالنسبة للأفريقي إلى أن تقديمه إلى الأفريقيين . قد تم بواسطة أفريقيين ، وهو ينظر إليه بوصفه ديانة أفريقية ،

١ - الإسلام ينمي الولاء للجماعة بين أعضائها ولا يسمح بأية عواقب بسبب اللون أو الجنس بأن تتل من الأخوة العالية بين المسلمين جليماً . وفيما يتصل بالتمييز داخل الجماعة فإن ما يجري عليه المسلمون أفضل مما يجري عليه كثير من المسيحيين ، أما فيما يتعلق بالحواجز بين الجماعات فالامر ليس حسناً إلى هذا الحد .

٢ - وعي الإسلام بانه وعي عميق . فاصرا له وحدة الله وعظمته وقدرته تخلق احساساً بتبعية المخلوق يدعمه الالتزام الشعائري بأداء صلوات عدة . وهذا الوضوح والتحديد يتعارض مع ما تنطوي عليه المسيحية من غموض . لكنه كما يمثل قوة بشكل ضعفاً . لأنه يُؤد الإنسان على قدرته ، ويهدم المبادرة والمسؤولية الشخصية .

٣ - اصرا له على الاعتدال والحلم وكرامة الإنسان عنصر قوة . فحياة المسلمين التي تتسم بالاعتدال تناقض حياة الطوائف الاجتماعية الأخرى ، بما فيها المسيحيين .

٤ - عالمية اللغة العربية كوسيلة تخاطب خلال العالم الإسلامي ، تشكل نواة لروابط ثقافي أكثر أهمية ، تدعّمها جزاءات دينية قوية .

وفي تعليقها على البحث السابق تقول جولورا ويزنر^(١) :

« في تلخيص وتأكيد بعض النقاط التي أوردتها كارينتر ، وربما إضافة بعض النقاط الأخرى ، علياً أن نستظير آثار الإسلام في افريقية ومقارنتها بآثار المسيحية فيها :

١ - بينما يعمل الإسلام على الحد من